عدد
خاص

العائدون من الموت

WWW.LASTSTORY.NET

مايو 2023

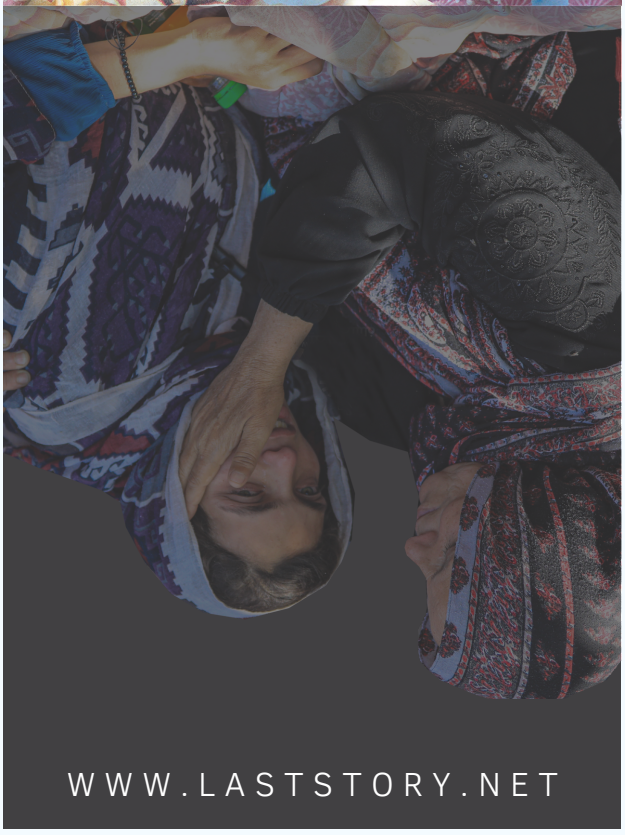

WWW.LASTSTORY.NET

آخر قصة
LAST STORY

عدد خاص يوثق تداعيات العدوان على قطاع غزة مايو 2023

رئيس التحرير
فادي جمال الحسني

مدير التحرير
نجلاء السكافي

رسومات
آلاء الجعبري

تصميم
رهف جلال

ميار وعلي

الرحلة لم تُلغْ الرحلة انتهت

بينما كانَ الطيران يقصفُ غزة بعنفٍ صيف 2014، كانت السيدة المُكنّاة بأم "محمد عز الدين" حامل، وقد كانت تخشى وقتها الإجهاض نتيجة القلق الذي ينتابها وانعكاسه على أوضاعها الصحية.

انتهت الحرب بعد أيام وسَكن الدُخان المتصاعد من المساكن المُهدمة، وبينما كان الناس يتفقدون أوجاعهم، صرخ جنين "أم محمد" وخرج إلى الحياة.

لقد اتفقت السيدة وزوجها طارق، أن يُسميانه "علي". كبرَ علي وصار يحبو ثم تكلم ثم دخل الحضانة ومن ثم المدرسة. إلى أن عاد القصف في المرةِ المئة بعدَ الألف على غزة، بينما كان نائماً رِفقة أسرته، ولم يخطئه، لقد جاء على رأسه فقتله من الفور، هو وشقيقته وأبيه.

علِي طارق عز الدين، هو اسمُ لطفل فلسطيني في ربيعه الثامن، بكاه معلموه في المدرسة وأصدقائه الذين كان من المُقرر أن يُشاركهم رحلةً مدرسية لولا أن قُتِل في غارةٍ إسرائيلية استهدفت الشقة التي يقطنها في حيّ الرمال وسط مدينةِ غزة بقصد اغتيال والده، وهو أسيرٌ محرر وقيادي عسكري في حركة الجهاد الإسلامي.

سأل "علي" ذلك الطفل الذي يشار إليه بالفطنة والذكاء، أمه قبل أيام "ماما اليّ بموت بتاكله الديدان؟" ردّت الأمّ متوجسةً بانفعال، "من وين بتجيب الأسئلة وشو خطر على بالك؟". ربما كان السؤال نابعاً من الشعور بالخوف الذي ينتابَ أطفالٌ كثر من الموت الذي تسببت به القذائف للمدنيين الفلسطينيين، لاسيما الأطفال والنساء.

رحل علي ومعه شقيقته ميار (11 عاماً)، رفيقة اللعب والمدرسة والتي نعاها الكثير من الأشخاص على مواقع التواصل الاجتماعي بمن فيهم أمهات تركت "ميار" أثرًا في حياةِ أطفالهم.

وقد كانا (علي وميار) طفلين بين 15 شهيداً ارتفقوا جميعا ليلة الثلاثاء التاسع من مايو الحالي، بفعلِ قصفٍ استهدف عدّة بناياتٍ سكنية في مناطق متفرقة من القطاع. أعقبها إعلان الاحتلال الإسرائيلي شنَّ عملية عسكرية على غزة أسماها "الدرع والسهم"، فيما لم تُبادر قوى المقاومة الفلسطينية إلى أيّ ردٍّ حتى كتابة هذه الأسطر.

"عليّ وما أدراكَ ما علي" قالت آية شاهين صديقة العائلة المُقربة، وأردفت، "هو مُختلف تمامًا عن إخوته، وعزيز قلبِ أبيه الذي كان يصفه بأنّ "طِباعه غزاوية"، في إشارة إلى أنّه يُشبه سكان غزة.

أكثر من سكان الضفة ربما وهي مسقط رأس أبيه، الذي جرى إبعادهِ من الضفة الغربية إلى غزة ضمن صفقةِ تبادلٍ أبرمت عام 2011 بين المقاومة الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي.

تُفسر هذا الوصف مروة نعيم، وهي مُعلمتُه في الفصلِ الثاني الابتدائي بمدرسة أوائل وقادة،قائلة: "علي شاب وليس طفل، مُختلف عن أيِّ طفل قابلتهُ في حياتي، رَزِين وعقلاني وكتوم، يضعُ ساعة في مِعصمه ولا يتوقف عن حِساب الوقت من الحينِ للآخر".

بصوتٍ غالبته الدموع مراتٍ عديدة، عَادت مروة تَجمع الصِفات المُنفردة كلها في عليّ وتقول لـ "آخِر قصّة"، "طالب متميز ومتفوق، مبدع وذكي جدًا، حتى أنّه لا يُشارك في الأسئلة الضعيفة ودائمًا ما أترك أسئلة الذكاء من نصيبه".

> وكان يُعرف أنه يحلُم بدراسة الهندسة ولطالما نادته مروة بـ "يا بش مهندس" وكتبت له على الدفتر محفزةً وباللهجة الغزاوية "أجدع مهندس"، وتذكر أنّه صنع وسيلتين تعليميتين بيديه في ساحة المدرسة وشارك بهما في المعرض الكبير الذي أعدّته المدرسة لأعمال الطلاب.

"المعلمات بضربوا فيه المثل ودائمًا بتكرّم على منصة المدرسة" هكذا اختصرت زميلته يمنى قاعود حديثها فيه، لكن المعلمة مروة أسهبت في مدحه وهي تذكر عدد المسابقات والجوائز التي نالها خلال عامه الدراسيّ.

في ذات المدرسة، رافقته أخته ميار، والتي على الرغم من عدد طلبة المدرسة، إلا أنها كانت مميزة بينهم، كما قالت معلمتها سماح جعفر، وأضافت "كانت الطفلة معروفة بخُلقها الرفيع وإقبال الصغيرات على صُحبتها بشكلٍ غير عاديّ".

ويبدو أنّ تلك الاستثنائية قد حظيّت فيها الصَغيرة منذ قُدومها على الدُّنيا، فلمّا رُزِقَ والدها طارق بها لم يَسعه الكون فرحةً بقُدُومها وخاصة أنّها جاءت بعد سنواتٍ من انقطاعه عن الإنجابِ بفعل تَغيُّبه داخل سجون الاحتلال.

لم تَكن وِلادتها بالهيّنة البَتة، فقد أنجبتها أمُّها بولادةٍ قيصرية صعبة وكانت قد وطأت غزة حديثًا بعدما فارقت الأهل في "جنين" بالضفة الغربية، وجاءت رفقةُ أبنائها "جميلة ومحمد" لتستقرَّ مع زوجِها في غزة.

لكنَّها كانت "كالنسمَة" هكذا وصَفتها شاهين "صديقة العائلة" التي لم تَصحو هي أيضًا من هوّل صدمتها بالفقد، وأضافت باكية، "بريئة للغاية، هادئة، ناعمة، ومحبوبة"، تقصد "ميار".

وعُرِف عن الصغيرة تميزها العلمي، إذ كانت تتبوأ مرتبة الشرف، عندما جَمعَت الأدبَ والعلم في آن واحدٍ على وصفِ صديقَاتِها.

كانت تحلُم ميار بدراسة الطبّ وكثيرًا ما ناداها أصدقاء العائلة ومعلماتها بـ "الدكتورة"، هي قدوة لزميلاتها ودائما تعتلي المنصة للتكريم في مجموعة "قائدات الإملاء"، وبشكلٍ منفرد عُرفت بأنّها رقم واحد في استعراضات المدرسة.

تقول المعلمة نعيم: "جميع مَن في المدرسة يعيش هولَ الصدمة، الأطفال يسألون كيف سنعود للفصول بلا علي وميار، حقاً لقد فقدنا فراشتين.. لا شيء يُعوضنا هذا الفقد الكبير؟".

سيدات دفاع مدني
تجارب أمهات تحت القصف

"شبهتها بالدفاع المدني في خوفها علينا من القصف، ذلك الخوف الذي يُحركها لإدارة الأزمة في البيت بجدارة تامة، فطيلة خمسة أيام لم تنم ساعة واحدة مطمئنة البال"، قال ياسر أحمد عن زوجته الأربعينية التي لم تتلق محاضرة واحدة في فنّ إدارة الأزمات لكنها أمّ، حسبما وصفها.

وخلال التصعيد العسكري الإسرائيلي على قطاع غزة والذي استمر من فجر التاسع من مايو إلى مساء الثالثة عشرة، لم تغمض جفون لينا محمد (45 عامًا) وهي تُحاول إخفاء خوفها أمام أبنائها الذين طالما استيقظوا على أصوات القصف راكضين نحو أمهم.

تارةً تنقل الأطفال من غرفتهم التي تطلّ على الشارع العام خوفًا من القذائف أو تساقط زجاج النوافذ نتيجة القصف، وتُقرر بحسها الأمومي أن ينام الجميع في هذا الركن أو ذاك باعتباره الأكثر أمنًا حسب حدسها.

وتارةً أخرى تجدها تفتح النوافذ بما يُصطلح عليه في غزة "تنفيس الشبابيك" أيّ فتحها قليلًا؛ بغرض ألا تبقى مُحكَمة الإغلاق وتتهشم بفعلِ غارةٍ قريبة مُفاجِئة هنا أو هناك كيلا يتأذى أحدٌ من الصغار.

وفي ساعات الليل الأولى وعلى صوت الطائرات الحربية سرعان ما تتفقد السيدة أسطوانات الغاز في الشقة خشية تسريبٍ غير متوقع للغاز نتيجة استهدافٍ قد يُزلزل المحيط فيشتعل حريق مباغت يلتهم المكان.

"لا شعوريًا كنت أصحى أتفقدهم الثلاثة كل شوية، وطول الليل أتخيل سيناريوهات انه الغاز تسرب أو الشبابيك تكسرت فبضل قلقانة عليهم وحريصة انهم ما يخافوا". قالت لينا التي تعكف على قضاء الليل تروي القصص لأطفالها الثلاثة حتى يناموا. أردفت السيدة في حديثٍ لـ "آخر قصة"، "رغم الخوف والقلق والهموم إلا إني كنت أحاول جاهدة أن أبث الأمل والقوة في قلوب أبنائي، وطوال الوقت أواسيهم وأمنحهم الأمان الذي نفتقده جميعا في غزة".

لم تكن لينا وحدها خط الدفاع الأول لأبنائها من الغارات والأيام الموحشة، فغيرها الكثير من الأمهات في قطاع غزة اللواتي عايشن مع أطفالهن ظروفًا قاسية خلال أيام التصعيد العسكري، فبعض الأطفال يخبرون القصف لأول مرة والكثير منهم كبروا ما بين عدوانٍ وآخر.

يقول محمد حامد (12 عامًا) في أمه التي كثيرًا ما خففت عنه وإخوته الضغط النفسي في ليالي التصعيد، "من الطبيعي أن نشعر بالخوف لحظات القصف لكن أمي تهون علينا الكثير باهتمامها بنا واستماعها لتخوفاتنا".

وتابع لـ "آخر قصة"، "والدي متوفي، وهي الأم والأب في البيت كانت تخاطر بحياتها لأجلنا، تذهب إلى السوق تحت القصف وتخاطر بحياتها وترفض أن أرافقها، توفر لنا الأساسيات والضروريات اللازمة".

وكانت والدة محمد (35 عامًا) تقضي الوقت في قراءة إرشادات السلامة خلال التصعيد، حسبما قالت، مشيرة إلى ضرورة أن تعي بكل التفاصيل وتعلم أبنائها كيف يتصرفون في حالات الخطر، أردفت، "وقبل النوم أتأكد عدة مرات من ابتعادهم عن أيّة مواد قابلة للاشتعال أو النوم بالقرب من الدواليب، خشية من أن تسقط فوقهم".

وتلعب الأم في أوقات التصعيد والقصف أدوارًا متعددة، وفقًا لأم محمد، فهي التي تقدم الرعاية وهي مصدر الدعم العاطفي، ويقع على كاهلها مسؤولية حمايتهم ومن واجبها بث الأمل والتفاؤل في نفوسهم حتى تتناسى خوفها وشعورها.

وعلى الرغم من هذا الدور البطولي الذي تلعبه الأمهات، إلا أنه ارتقت ثلاث نساء فلسطينيات خلال التصعيد الأخير على قطاع غزة، وتضررت مساكن العشرات منهن، فيما استشهدت 48 سيدة خلال أيار/مايو من العام 2021.

ووفقاً لمركز الإحصاء الفلسطيني، فإن أكثر من عشر الأسر ترأسها النساء في الأراضي الفلسطينية، بواقع 12% في الضفة الغربية و9% في قطاع غزة للعام 2020.

تمتد التأثيرات السلبية للتصعيد الإسرائيلي على غزة إلى كافة شرائح المجتمع، وفق المختصة النفسية والاجتماعية فلسطين ياسين، التي أكّدت على أنّ تجربة التصعيد ليست بالهينة البتة على الأمهات وأطفالهن، وتترك آثار عميقة في النفوس.

وقالت ياسين في لقاءٍ مع "آخر قصة"، "الأجواء المشحونة تتسبب بضغط نفسي كبير لجميع الأفراد وتحديدًا الأم، ففي الوضع الطبيعي تكون منشغلة بمهامها المنزلية التي تصارع لإتمامها على أكمل وجه لكن في أوقات التصعيد تصبح المعاناة مضاعفة".

ينبع قلق وتوتر الأم الشديدين من خوفها أن تفقد أحد أطفالها، بحسب ياسين، "ومجرد رؤية الأم لأطفالها خائفين تُرهق نفسيًا فتصبح كالدينامو الذي يحاول فعل أي شيء لبث الأمن في البيت وهي بذلك تطمئن نفسها أولًا".

لكن الأمر لا يعدو عن كونه مجرد طمأنة فالأم معرضة للاكتئاب والانهيار نتيجة الأحداث التي تصارعها لكن وجود أبنائها حولها طيلة الوقت قد يمنحها شيئًا من الثبات، قالت ياسين.

وعن حماية الأم لأطفالها نصحت بضرورة أن تعطي الأم مساحة لنفسها حتى تستطيع تقديم الرعاية لأطفالها، وتفادي سيطرة الخوف عليها من خلال تمارين الرعاية النفسية، والابتعاد عن الصور والفيديوهات الموجعة.

وقالت المختصة النفسية: "هذا سيساعد الأم على حماية أطفالها وإعطائهم الرعاية الصحيحة دون تعرضهم لضغط نفسي، كما يجب أن يمارس الأطفال روتين أيامهم الطبيعية دون السهر والجلوس على التلفاز والهاتف لساعات بحجة العدوان".

وختمت ياسين حديثها بضرب مثال للأم العاملة التي تكون تعمل في منزلها عن بُعد في ظروف التصعيد، فهي تكون بصراع نفسي حول إنجاز مهام عملها وبيتها، ودعت جميع الأمهات إلى تخصيص وقت للنفس قدر المستطاع بعيداً عن التوتر والأخبار السياسية في أوقات التصعيد.

وعلى مرّ السنوات التي تبقى فيها ذكريات القصف حاضرة ما بين واحدٍ وآخر وراسخة في النفس، إلا أن دور الأم يبقى أيضًا أساسيًا ولا يُنسى، فالأم بطلةٌ حُق أن يحتفى بها، ومثالًا يُحتذى بقوته وثباته وهي رجل الدفاع الأول للبيت بفطرتها وحنكتها.

"المال معوض"
مجاملة في غير محلها أحياناً

يكدّ العامل الفلسطيني أكثر من عشرين عاماً من أجل اقتناء مسكن، أو إعادة بنائه على شكل أدوار متعددة من أجل احتواء أفراد أسرته لما بعد إنجاب الأحفاد.

وبين عشية وضحاها قد يصبح المسكن الذي يصطلح عليه في غزة بأنه "ثمرة شقاء العمر"، أثراً بعد عين.

يأزر الفلسطينيون بعضهم بعد كل جولة تصعيد يتكبد فيها البعض خسائر مادية، وتأتي المجاملة في هيئة عبارات مختلفة منها: "في المال ولا في العيال، المال معوض، بكرا بترجع أحسن من أول، ما تشيل هم أشي المهم صحتك"، رغم أي من تلك العبارات يدرك قائلها ومستقبلها أنها لا أساس أحيانا لها من الصحة.

يكفكف الحاج الثمانيني طه مسكنه الذي فقده بعد رحلة شقاء طويلة يسميها "تحويشة العمر"، وقال "مخطئ من قال إن المال معوض، والله إن المال يعادل الروح"، في إشارة إلى أهمية تأمين مسكن في منطقة كقطاع غزة والحاجة الماسة إليه.

وأضاف الرجل ذو اللحية البيضاء، متحسراً "وين نروح بعد قصف الدار؟، في الشارع يابا بدنا نقعد"، بعدما حاول بعض أقربائه إجلاءه إلى مساكنهم القريبة من المسكن المدمر.

وتعد تكلفة إنشاء مسكن في قطاع غزة باهظة في ضوء وجود تحديين أساسيين: انعدام مصادر الدخل، ومحدوديته، وبخاصة أن نسبة الفقر قد تضاعفت في القطاع الذي يعاني حصاراً منذ أكثر من 16 عاماً.

وتتراوح تكلفة إنشاء الشقة السكنية في القطاع بين (20-90 ألف دولار)، وهي قيمة ليس بمقدور عامل بأجرٍ متدنٍ قد لا يتجاوز الـ300 دولار شهريا أن يوفرها. واعتمد غالبية السكان على المساكن متعددة الطبقات التي بناها آباءهم، بعد رحلة كد وشقاء استمرت عدة عقود في قطاعات مختلفة.

> "مخطئ من قال إن المال معوض، والله إن المال يعادل الروح"

وهذا ما يؤكده الشاب محمد زيدان من مدينة دير البلح وسط قطاع غزة، والذي قال بعد تضرر منزله بشكل كامل إثر قصف منزل أحد جيرانه، "أقسم بالله تدمرنا، الواحد بيطلع لنص الليل يشتغل بـ(20) شيكل حوالي 5$، كل الدار تدمرت".وتابع زيدان حديثه لـ"آخر قصة" وهو في حالة يرثى لها: "كل حارتنا تدمرت مش بس بيتي، محوا الحي كامل هينا نايمين في الشارع أنا وولادي وزوجتي، الواحد بيروح يشتغل على قد مصروف بيته وولاده باليومية إحنا قادرين نعمرا".

منزلا عائلتي "طه وزيدان"، مثالاً حياً على الألم الذي يعِشه أكثر من 15 أسرة دمرت مبانيهم تدميرا كلياً في مناطق مختلفة من القطاع، وتضم هذه المباني 51 وحدة سكنية، فميا تضررت 940 وحدة سكنية، منها 49 وحدة باتت غير صالحة للسكن خلال العدوان الإسرائيلي والذي استمر منذ (09 -13 مايو) 2023، على القطاع.

وكانت وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين أصدرت إحصائية حول نسبة الفقر في قطاع غزة حيث بلغت81,8% ، يعيشون تحت خط الفقر، فيما يعاني 64% من انعدام الأمن الغذائي، وبلغ معدل بطالة الشباب الإجمالي 64%.

وعن معدل دخل الفرد في قطاع غزة وقدرته على البناء تحدث المختص الاقتصادي الدكتور سمير أبو مدللة لـ"آخر قصة" :"يبلغ معدل دخل الفرد في قطاع غزة ما يقارب (1100$) سنوياً، ويوجد أزمة كبيرة في بناء المنازل والسبب في ذلك غلاء الأراضي".

وترتفع أسعار الأراضي في القطاع الذي تبلغ مساحته 365 كم²، بشكل كبير جداً، نظراً إلى محدودية المساحة التي يقيم عليها أكثر من اثني مليون مواطن.

ويضرب أبو مدللة مثالاً على تكلفة إنشاء مسكن، قائلاً: "يتوقف بناء المنزل على سعر الأرض، فمثلاً في الأماكن الشعبية يتراوح سعر المتر من (150-200) دينار أردني في حال احتاج الشخص فقط ما يوازي (200) متر أرض سيكلفه (60) ألف دينار أردني سعر أرض وفي المقابل من (50-70) ألف دولار بيت صغير أو متوسط".

وأضاف أن "مدة البناء حسب المدة المقدرة وهي من عام إلى عام ونصف حسب السيولة لدى الشخص وتوفر المواد الخام لأنها قد لا تكون موجودة بسبب الحصار على قطاع غزة وهذا سيطيل من أمد البناء".

جدير بالذكر أنّ قطاع غزة يعاني عجزاً في الوحدات السكنية، إذ إن أكثر من 90 ألف وحدة سكنية تضرّرت خلال الاعتداءات الإسرائيلية المتعدّدة على قطاع غزة حتى عام 2022 بحاجة إلى إعمار، وفق إفادة مركز حقوقي فلسطيني.

وما بين عبارة (المال معوض)، و (في المال ولا في العيال)، سيبقى المواطنون المتضررون، يعانون الشتات والتهجير، إلى أن تتحقق عملية إعادة الإعمار والتي لم يجر الحديث عنها حتى بعد مرور 48 ساعة على وقف التصعيد الإسرائيلي

حين يجتمع

الدمار والفقر والإعاقة على عائلة "نبهان"

تحت شجرة الجوز الضخمة الموازية لمسكن عائلة "نبهان" القاطنة في بيت لاهيا شمال قطاع غزة، كان أفرادها يجتمعون كعادة يومية صباحية، يعرضون خلالها أبناءهم من ذوي الإعاقة لأشعة الشمس، ومن ثم يرتشفون الشاي ويتبادلون أطراف الحديث عن واقعهم الاقتصادي المتردي.

غير أن الجميع اليوم يجلسون في حالة من الذهول تحت الشجرة ذاتها، وهم يرمقون مسكنهم الذي أصبح أثراً بعد عين، نتيجة قصفه من قبل طيران الاحتلال ظهر السبت الثالث عشرة من مايو.

هذا البيت المكون من أربعة أدوار دفن تحته ذكريات خمسين شخصاً-أربعة منهم من ذوي الإعاقة- وأقراص علاج وأدوات طبية مساعدة.

تقول سيدة مكتنزة من العائلة: "لم يسعفنا الوقت حتى نصحب أيًا من مقتنيات هذا البيت، بالكادّ نجونا بأنفسنا وأبناءنا من ذوي الإعاقة.. يا روح ما بعدك روح".

تحتضن السيدة وتدعى نجاح نبهان (57 عاماً)، ابنتها العشرينية أريج، والتي تعاني من نوبات صرع تلازمها منذ الولادة، وتعتمد على عقاقير خاصة، لتخفف عنها وطأة حالة التشنج والتي تنتابها بلا موعد.

كانت الفتاة تغطي وجهها بشال أسود، لم يبرز منه سوى عينيها الخضراوين، وقالت آخر قصة "لم نفعل شيئا للاحتلال حتى يدمر مسكننا بهذا الشكل.. لقد كنت نائمة ثم جاء أخي وصرخ بي قائلاً هيا قومي سيقصفون البيت فوق رؤوسنا .. ثم خرجنا نركض في الشارع بين أبناء عمومتنا دون غطاء رأس".

تغسل الجارات المجتمعات حول العائلة، وجه الفتاة بين الفينة والأخرى في محاولة منهم لإبقائها متيقظة، وقد عرف عن هذا الحي أن قاطنيه يؤازرون بعضهم البعض، فتفرق أبناء عائلة "نبهان" في بيوت الجيران التي فتحت لهم.

تقول السيدة نجاح :" مش عارفة أحكي عن خوفنا من القصف ولا عن فقدان البيت الوحيد للأسرة، ولا عن هم أولادي الأربعة المعاقين وخوفهم وأدويتهم وأجهزتهم وكراسيهم المتحركة!". وخيمت حالة هلع على الأفراد من ذوي الإعاقة الحركية والذين لا قدرة لهم على الركض أو الهروب من وقع الخطر الذي طال مسكنهم، لولا مساندة أفراد العائلة.

ويبلغ عدد أفراد أسرة نبهان التي تقطن في الطابق السفلي من البناية 15 فرداً، أربعة منهم لديهم إعاقة جسدية وصعوبة في الحركة، إضافة إلى بعض الاضطرابات الذهنية.

آيات (29 عاما) وحنين (16 عاما) تعاني من مشاكل صحية في ساقيها ولا تستطيع المشي، وأريج (18 عاما) تعاني من زيادة نسبة في كهرباء الدماغ، وجلال (38 عاما) يعاني من إعاقة حركية وحالة نفسية، وهي أمراض يقولون إنها متوارثة ويصعب عليهم علاجها وتأمين الدواء لها، نظراً لسوء الأوضاع الاقتصادية.

وحين يجتمع دمار المنزل والمأوى مع المرض والفقر، تبدو الأمور أكثر صعوبة وخاصة أن هذه العائلة تعيش على المساعدات التي تقدمها بعض المؤسسات وما تجود به أيدي الناس من فاعلي الخير على صعيد الأدوية والمأكل، حسب إفادة أفرادها.

وتترك الحرب بصماتها القاسية في القطاع الذي تبوء كل محاولات النهوض به بالفشل، في ظل الازدياد المطرد في نسبة الفقر والتي بلغت 50% ما يعني أن نصف المجتمع يعاني ظروفا معيشية صعبة، فضلاً عن أن أكثر من 80% من السكان يعتمدون على المساعدات الإنسانية، وفق تقديرات المنظمات الدولية.

ولا زلت حالة الصدمة تسود كل من عاش في هذا المنزل لجهلهم سبب قصف منزلهم بهذه الطريقة الوحشية وهم بالكاد يملكون قوت يومهم وحتى شبابهم يعانون من البطالة ويعملون بشكل يومي في حال وجد عمل في بعض أراضي محيطة بهم.

على هامش الجلسة تحت الشجرة إياها، تتكوم بعض أدوات الطهي المتهالكة، تشير السيدة منال نبهان زوجة الابن جلال، بيدها وتقول: " هذا ما استطعنا إخراجه قبل قصف المسكن، وهي أدوات من الأصل تبرع بها فاعلو خير من الجيران.. كل شيء انتهى، ويا ليت تقف المأساة عند هذا الحد، فقد أصيبت ابنتي الوحيدة التي أنجبتها بعد سنوات من العقم، بجروح غائرة نتيجة القصف"، مشيرة إلى أن أسرتها تعتمد على فتات الخبز من أجل إشباع جوعها في ظل انعدام فرص الدخل.

ويعد بيت عائلة نبهان واحدًا من أصل 51 وحدة سكنية، تم تدميرها كليا خلال العدوان الأخير على قطاع غزة والذي استمر منذ (9 -13 مايو)، فيما تضررت 940 وحدة سكنية جزئياً، منها 49 وحدة سكنية باتت غير صالحة للسكن، وفق إحصاءات أولية.

وتعتبر نسبة الأشخاص ذوي الإعاقة في الأراضي الفلسطينية، الأعلى على مستوى العالم، حيث تصل إلى 3.5% من مجموع السكان، وترتفع في قطاع غزة بشكل خاص لتصل إلى نحو 4%، نتيجة التصعيد المتكرر.

ويقول الناشط في قضايا ذوي الإعاقة مصطفى عابد إن هذه الشريحة بحاجة ماسة إلى العديد من الخدمات، وفي مقدمتها الدعم النفسي في ظل الظروف الراهنة.

وأشار عابد إلى أن الأشخاص ذوي الإعاقة يعانون الأمرين في ظل عجز الغالبية منهم عن التعامل مع أوضاع الطوارئ، لا سيما أصحاب الإعاقات الحركية والبصرية، لأن قدرتهم على النزوح من المساكن المهددة والأماكن الخطرة، محدودة جداً.

مغتربون

الحدّ بيننا وبين القصف شاشة تلفاز

الساعةُ تشير إلى الثالثة من فجرِ التاسع من مايو في هاتف مريم الشريف، تقف على النافذة تنظر إلى شوارع مدينة القاهرة حيث تقطن فترى العالم في حالةِ سكون، بينما هي استيقظت على وقع رسائل عدة تفيد بأنَّ قطاع غزة حيثُ تُقيم عائلتها يتعرض لانفجاراتٍ متتالية تُنبئ بعدوانٍ إسرائيلي وحالة من الغليان تسود السكان هناك.

مريم واحدة من أكثر من 383 ألف مغترب من قطاع غزة، يقضي العديد منهم فترات التصعيد والعدوان على القطاع وهم يحبسون الأنفاس، يتساءلون كم مرّة في العمر يُصارع المرء روحه؟ هل واحدة؟ اثنتان؟ نحن نموت مرات مُضاعفة قلقًا وخوفًا على غزة حيث الأهل والعائلة والأماكن والبلاد والذكريات كلها في مرمى الصواريخ هناك.

"آخر قصة" التقت بعضهم وقدمت سؤالًا: "ماذا يعني العدوان للمغترب من غزة؟، فاتفق جميعهم على أنَّ التصعيد يكون أشد وطأة وهم بعيدين عن أحضان عائلاتهم، فهم يتمركزون على الشاشات يرقبون الأخبار بقلقٍ شديد ويسجلون مع كل خبر أليم مواقف تُعادل العمر قسوةً ومشقة.

وبالعودة إلى مريم الشريف (20 عامًا) التي فارقت الأهل قبل عامين لدراسة الطب في مصر، تقول، "من الصعب جدًا أن تُقصف غزة ونحن ليسوا فيها، كل ثانية تمر عليّ في الغربة يراودني مليون تخيل، ومليون فكرة سيئة، يغلبني النوم فجأة فأصحو أراقب الأحداث والاستهدافات الجديدة في تلفوني".

تعيش مريم مشاعر الخوف على العائلة داخل غرفتها وحيدةً، وقالت لـ "آخر قصة"، "كل بالي وفكري يكون مع الأهل، أخاف أن يصيبهم مكروه وأنا لستُ معهم، والناس من حولي يعيشون حياتهم بشكلٍ طبيعي وفي ظلّ كل هذه الأحداث يكون الأصعب أنني مرغمة على مواصلة دراستي وعيش مشاعري لوحدي".

شاركها زميلها في التخصص محمد أبو ضباع، وقد بدت على نبرة صوته القهر وهو يقول، "كلنا نرى ونشاهد ما يحدث لأهلنا وشعبنا في قطاع غزة، صراحة شعور مخيف يجعلني في قلق مستمر وتوتر خاصّة أني مغترب وبعيد عن أهلي، وفي كل لحظة أفكر بالعودة".

قد يظنّ البعض أنَّ المغتربين كُتبت لهم النجاة من فِكاك الصواريخ لكنهم وحسبما أجزم الكثير منهم لم ينجوا من نوبات الهلع في هذا العدوان الذي استمر لخمسة أيام، وراح ضحيته 33 شهيدًا وأصيب 190 شخصًا فيما تضرر 51 منزلًا، ومع كل خبر يحمل استهداف أو استشهاد أو تدمير، يراودهم شعور أنّه يخص ذويهم دون غيرهم نتيجة فارق التوقيت في نقل تفاصيل الحدث بين غزة والبلدان التي يُقيمون فيها.

ومن مصر إلى تركيا حيث توجد إسراء الشريف وهي صحفية وباحثة أكاديمية غادرت قطاع غزة قبل نحوِ خمسة أعوام بغرض دراسة الدكتوراه في الإعلام، وكانت قد عاشت كافة تفاصيل العدوانات الإسرائيلية السابقة على غزة وسطَ العائلة لكن الأخير قضته وحدها في تركيا بنفسية محطمة وأعصاب مشدودة طوال الوقت، حسب تعبيرها.

"هذه المرة عشت مشاعر مضاعفة عن كل التصعيدات الماضية بين الأهل التي كنا نمارس فيها حياتنا بشكل طبيعي رغم أننا تحت القصف، أما وأنا وحدي هنا أتابع كل خبر وحرف وصورة وكل تعليق على منشور في منصات التواصل الاجتماعي ولا أترك مشهدا إلا وأراه وهذه المشاهد بالطبع تؤثر عليّ أكثر بكثير مما لو عشتها في غزة"، قالت الشريف لـ "آخر قصّة".

"تجربة مريعة" هكذا وصف محمد إياد الذي سافر إلى فيتنام بغرض الدراسة موقف عصيب مرّ به خلال أيام العدوان الخمسة، يقول، "كنت أتحدث مع أمي مكالمة فيديو فقصفوا بجانب البيت، وصارت تصرخ وتقول لي (يما الحقني يما.. قصفونا يما) ووقعت على الأرض، في هذه اللحظة شعرت بعجزٍ شديد وأنني لا أستطيع أن أفعل شيئا وأحمي أمي وأهلي في هذا الوقت فكانت كلماتها مؤثرة للغاية أكثر من معناها، أدركت وقتها أنّه بالفعل الحرب مدمرة لسكان المدينة وللمغتربين على حدٍ سواء". لم تختلف شهادة المغتربة إيناس أبو عويمر وهي خريجة هندسة حاسوب من جامعة "كارابوك" شمال تركيا، التي أكّدت على أنّها كغيرها الكثير من الطلاب في الخارج يتعرضون خلال العدوانات على غزة إلى كمية كبيرة من الضغط النفسي خلال متابعتهم للأخبار، وقالت، "الاحتلال وجرائمه تؤثر على القريب والبعيد".

الظروف ذاتها عايشها المغتربون في أكثر من مدينة ودولة حول العالم، وفي هنغاريا "المجر" حيث يُقيم الطالب في تخصص إدارة الأعمال أحمد ضاهر، الذي عدَّ معايشة ظروف العدوان على غزة وهو بالخارج موت بطيء، وقال، "في الغربة أموت ألف موتة كل يوم من أيام التصعيد، صدقًا الألم في الغربة موت مُضاعف".

وتابع بصوتٍ مُهتز بدا عليه التوتر الشديد، "عندما يكون الواحد منّا يعيش في غزة وسط أهله، فهو يرى المعاناة بأم عينه، ويتقاسمها مع العائلة، حتى على الأقل إذا استهدفوا وتعرضوا للموت سيكونون معاً وإذا فقد أحدهم فيحظى بفرصة إلقاء نظرة الوداع عليه".

ماذا عن إسراء مطر التي شاركت أهلها آخر عدوان على غزة قبل نحو خمسة عشر عامًا وقضت الأربعة الذين تلتهم وحدها في فلوريدا بأمريكا، تقول، "قضيت العدوانات وأنا فاتحة لأهلي محادثة كاميرا 24 ساعة، كنت أسمع معهم صوت الصواريخ، القذائف، أسمعهم يقرأوا الشاهدتين على أرواحهم وأنا ما قادرة أعمل شيء غير الدعاء".

وأكّدت مطر أنّها تقيم في أمريكا جسدًا بينما روحها وقلبها وتفكيرها كله مع العائلة في غزة، وكإسراء أيّضًا كان الصحفي أحمد أبو عيطة المتواجد في تركيا الذي قال لـ ""آخر قصة"، "نحن خرجنا من قطاع غزة لكن لم نستطع إخراج غزة من داخلنا، إننا نعيش نفس الألم والخوف، والمعاناة التي يعشها السكان هناك".

وما بين عدوانٍ وآخر على قطاع غزة تتكرر مشاهد القتل والأشلاء وتهجير السكان وسط استهدافاتٍ صاروخية أو قذائف منها ما هي مُباغتة دون سابق إنذار حسب شهادة الكثير منهم، وبين هذا وذاك يعيش الناس وذويهم في الغربة ظروفًا استثنائية غاية في القهر والضغط النفسي التي يصعب تجاوزها بسهولة.

تجارب حية..

كيف يواجه السكان أزمة ما بعد العدوان؟

بعد مرور بضعة أيام على وقف العدوان الإسرائيلي على غزة الذي امتد من 9 إلى 13 مايو الجاري، ما بين قصف وتدمير وتهجير، ما زالت الآثار النفسية عالقة في نفوس السكان، وربما ازدادت عمقاً في تحولها من ترقب وقلق وخوف، إلى اضطرابات نفسية.

وبلا شك فإنَّ التأثيرات النفسية السلبية للعدوان وقعت على الصغار والكبار على حدٍ سواء، حسب تقدير المختصين، وإن كانت تتفاوت بين الفئتين بدرجاتٍ متعددة، إذ تظهر على شكل عزلة واضطرابات في النوم وأرق واكتئاب وتوتر عصبي كبير قد يصل إلى اضطرابات ما بعد الصدمة.

هلا ناهض (24 عامًا) واحدة مما يزيد عن مليوني وأربعمئة ألف مواطن في غزة تعرضوا للعدوان الإسرائيلي الأخير وعانوا من آثاره النفسية، إلا أنّ هلا التي يعمل والدها مزارعًا في الأراضي الزراعية شرق غزة لم تزل تُقاسي تقلبات نفسية جمّة بفعل خوفها وترقبها طوال فترة العدوان.

تقول ناهض في حديثٍ لـ "آخر قصّة"، "بعد وقف إطلاق النار قررت اعتزال الناس بسبب ما أصابني من ضغط نفسي خلال التصعيد من قلق على والدي فمع كل صاروخ يهبط أو انفجار يحدث كانت تراودني عشرات السيناريوهات وأشعر بتوتر شديد وهذا ما أثر على نفسيتي بالسلب حتى فكرت بعدما توقف القصف في ملازمة غرفتي".

وعلى نحوٍ قريب عبّر طارق حسن (34 عامًا) عن تردي حالته النفسية بعد انتهاء العدوان، وقال: "خلال فترة التصعيد كنت متحمسًا جدًا وأتابع الأخبار لحظة بلحظة، غير أنه بعد إعلان الهدنة بين الطرفين.. شعرت بنوع من القلق الكبير ولست أدري لماذا".

حسن الذي يعمل في أحد المكاتب الهندسية بغزة، قال إنه بدأ يشعر بتقلبات نفسية سيئة انعكست على سلوكياته في شراهة التدخين والأرق الشديد وفقدان الرغبة في العمل والإنجاز.

وربما جاء هذا العدوان ليزيد الطين بلّة على أوضاع الناس في قطاع غزة، فقد أظهرت نتائج إحصاءات محليّة أنَّ 71% من سكان قطاع غزة مُصابين بالاكتئاب؛ ما يعني أكثر من نصف المجتمع الفلسطيني داخل قطاع غزة.

وفي خضم المتابعة الحثيثة للخروج من الحالة النفسية التي تمر بها قامت رزان محمد (30 عامًا) التي ظلّت تُعاني من العصبية خلال فترة العدوان وبخاصة أنها كانت تبكي طوال الوقت دون سببٍ مباشر؛ قالت إنها توجهت إلى الطب النفسي لتجاوز هذه المحنة.

وتسببت الحرب للشابة رزان، باضطراباتٍ في النوم، وقالت "خلال العدوان كنت لا أطيق أن يُحادثني شخص بشيء وحتى كلمة مرحبا كانت تؤذيني، وبعد انتهاء التصعيد مباشرة توجهت إلى مراجعة مختصة نفسيّة لمواجهة أزمتي".

وحول قيامها بهذه الخطوة، عقبت رزان، "أعصابي تعبت ولم أعد أحتمل الألم الذي يراودني؛ لذلك توجهت لمختصة وبالطبع لم تهمني نظرة الناس للطب النفسي فأنا وحدي المتضررة والعلاج أو الدعم النفسي لم يعد رفاهية البتة بل هو أكثر من ضروري".

اتفقت المختصة النفسية هند بركة مع ما أسلفت به رزان حول ضرورة القيام ببعض إجراءات تساعد على رحلة التعافي وتجاوز الظروف الصعبة والضغط النفسي الناتج عن العدوان، لا سيما تقبل الفرد بأنّ السلوكيات التي تصدر عنه بسبب الضرر هي غير طبيعية ومؤقتة.

بالإضافة إلى اتباع بعض الاستراتيجيات التي بإمكانها إعادة بناء الحياة النفسية من جديد وتقويتها، وفقًا لبركة، التي نصحت بممارسة الرياضة لما لها من دور كبير في تخفيف الإجهاد النفسي، و حذرت من الإفراط في تناول السجائر أو اللجوء لتناول حبوب منومة، وضرورة تجنب اتخاذ أيّ قرارات فردية دون استشارة طبية.

وعن تأثير الحرب على الأطفال تحديدًا، نشر مركز حقوقي عام 2021، بياناً جاء فيه أنَّ 91% من أطفال غزة أصيبوا بصدماتٍ نفسية بعد عدوان مايو (أيار) 2021، وذكر أنّ 9 من بين كل 10 أطفال يُعانون أحد أشكال الصدمة المتصلة بالعدوان.

وحول الأساليب المفضل اتباعها لإعادة تهيئة الأطفال بعد العدوان، قالت بركة لـ "آخر قصّة"، "من المهم توفير الدعم النفسي والعاطفي للأطفال بوجود بيئة آمنة من خلال الحديث معهم والاستماع لمخاوفهم وانطباعاتهم ومحاولة الترويح عن أنفسهم وعدم كتمان مشاعرهم وتجنب تأنيبهم على مشاعر الخوف أو الصراخ عليهم".

كما نبّهت إلى ضرورة استخدام تقنيات الاسترخاء المخصصة لتفريغ الضغط النفسي التي تساعد في إعادة بناء الروتين اليومي الذي يشمل جدولا زمنيًا منتظمًا يتضمن الوقت المخصص للنوم والأكل واللعب والتعلم وهو ما يعزز صحة الأطفال.

ومما لا شك فيه أنَّ الغزيين عايشوا ظروفًا نفسية استثنائية خلال العدوان الإسرائيلي خلّفت ندوبًا واضحة يصعب تجاوزها بسهولة وانقضائها بمجرد الإعلان عن سريان الهدنة وتحتاج إلى فترة نقاهة حتى يتم الوصول إلى التعافي التام.

آخر قصّة
LAST STORY
WWW.LASTSTORY.NET
تصفح أسهل لمعالجة صحفية عميقة